منهج شوقى ضيف
فى الدراسات الأدبية

د. يوسف حسن نوفل

١ - إن محاولة التعرف على منهج الباحث الأدبى لا تنفصل عن محاولة التعرف على مناهج الباحثين السابقين والمعاصرين له؛ ذلك أن هذا الباحث لايظهر فى فراغ أدبى، أو أُفقٍ حالك، أو صحراء مجدبة. بل ترسخ جذوره، وتورق أغصانه وسط رياض حافلة بما قدمه الفكر العالمى: القديم والمعاصر، والفكر المحلى: التراثى والحديث.

ونحن بين يدى العطاء الأدبى لشوقى ضيف فى حقل الدراسات الأدبية، نجد من الأهمية بمكان أن نلقى نظرة سريعة، نتعرف من خلالها على ما أنجزه الباحثون السابقون فى هذا المضمار، ممن مهدوا الطريق، طريق البحث العلمى الجاد أمام المدرسة العلمية المنهجية التى أسسها، ورادها عالمنا الكبير «د. شوقى ضيف»، وأسهم فيها إسهامات متنوعة ما بين الأثر الأدبى المطبوع والمسموع، والأثر الأدبى الأكاديمى التعليمى، وبخاصة فى حقل الرسائل العلمية، وكل مجال من هذه المجالات يستحق دراسة خاصة به تستكنه أعماقه، وتستشرف آفاقه لبيان الملامح الفنية لمنهج البحث الأدبى لعالمنا الكبير.

لباحث أن يقف على منهجه الأدبى فى محاضراته المسموعة، ولباحث ثان أن يتأمل منهجه الأدبى فى إشرافه العلمى على رسائل الماجستير والدكتوراه، وما أثمر من ثمرات يانعه يفوح عبيرها فى أرجاء المجتمع العلمى العربى، مقترنة بأعلام لهم مكانتهم العلمية، وإسهامهم فى حقل الدراسات الأدبية، خرجوا - جميعًا - من عباءة شوقى ضيف، وتتلمذوا على يديه بطريق مباشر أو غير مباشر عن كتب أو عن بعد.

وأمام هذا التعدّد الخصب لا نملك إلا أن نحدد مجالاً لدراستنا. نحصره فى «منهج شوقى ضيف فى الدراسات الأدبية» من خلال آثاره المطبوعة.

* * *

٢ - إن حركة الاهتمام بالدراسات الأدبية الحديثة فى أدبنا متصلة أشد الاتصال بموقف الدارسين من مصطلح «علوم الأدب»، واتساعه ليشمل عندهم ما يتصل بالأدب من تقويم اللسان وتصحيح الملكات، ومن اختلاف فى عدد هذه العلوم، وفى تنوعها ما بين الأصول والفروع حتى لتشمل - عند أصحاب المنهج التقليدى - فروع اللغة والثقافة، قبل أن يتحدد مجالها لدى المحدثين من دارسى الأدب العربىؤ

كما أن حركة الاهتمام بالدراسات الأدبية متصلة أشد الاتصال بتيارات وافدة عن طريق البعثات، والمستشرقين من أمثال بروكلمان، ونللينو وغيرهما، فإذا ما حاولنا الوقوف على أمهات المصادر العربية الحديثة فى هذا المجال دون خوض فى التفصيل، وجدناها متمثلة فى بواكير الدراسات التى ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، وكانت هذه البواكير اللبنة الأولى فى صرح الدراسات الأدبية، برغم ما يفتقر إليه بعضها من منهجية أو شمول، وبرغم ما يمكن أن يوجَّه إليها من ملاحظات فنية.

قد نجد من بين هذه الدراسات ما يستهدف انتخاب المعارف والمعلومات، والمختارات الشعرية والنثرية، وعرض الحكم فى لغة تجمع بين الاسترسال والسجع. كما يبدو فى خطوة رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣)، فى كتابه (مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية) سنة ١٢٨٦ هـ، ممثلة تجربة أدبية لا تعنى أنه كان يدور بخلد صاحبها أن يقدم دراسة أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة.

وفى هذا النسق كانت تجربة محمد سعيد جعفر فى كتابه (السعر فى انتقاد الشعر)، الذى نشر منجما فى مجلة (روضة المدارس) منذ رمضان ١٢٩٣/١٨٧٦م.

على أن هذه المرحلة الباكرة أسفرت عن محاولة أكثر نضجًا، تمثلت فى (الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية)، وهى جملة محاضرات الشيخ حسين المرصفى (١٨٠٥-١٨٩٠)، وظهرت طبعة الجزء الأول منها عن مطبعة المدارس الملكية سنة ١٢٨٩ هـ/١٨٧٢م، والجزء الثانى ١٢٩٢ هـ - ١٨٧٥م.

وهكذا فتح باب الاهتمام بدراسةآدابنا دراسة تدنو، أو تبعد من اتصالها بالطابع التقليدى لفهم الأدب ودرسه، ثم التيارات الوافدة عن طريق البعثات والمستشرقين، ويمكن أن نشير - بإيجاز شديد جدًا - إلى طائفة من هذه الدراسات هى - فى حقيقة الأمر - الخطوات التمهيدية لما نجنيه الآن من منهج علمى يؤدى ثماره اليانعة على أيدى أعلامه البارزين.

هذه الدراسات الباكرة من مثل ما قدم:

محمد دياب الذى انتهى من تأليف كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) سنة ١٨٩٧م، كما نفهم من تقرير حمزة فتح الله عن فحص هذا الكتاب الذى طبع سنة ١٩٠٠م، وحسن توفيق العدل (١٨٦٢-١٩٠٤) إثر عودته من ألمانيا، وقيامه بالتدريس فى المدارس العليا، وقد صدر كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) سنة ١٩٠٤ عام وفاته بانجلترا، وروحى الخالدى المقدسى (١٨٦٤-١٩١٣) فى كتابه (تاريخ علم الأدب عن الإفرنج والعرب)، وكتبه سنة ١٩٠٢ فى فرنسا، وظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٠٤، وسليمان البستانى (١٨٥٦-١٩٢٥) فى مقدمة الإلياذة سنة ١٩٠٤، وقسطاكى الحمصى (١٨٥٨-١٩٤١) فى (أدباء حلب ذوو الأثر فى القرن التاسع عشر).

ولنا أن نذكر (إنشاء العطار) للشيخ حسن العطار (توفى سنة ١٨٣٤)، كما نذكر جهودًا غير مكتوبة للأفغانى (١٨٣٨-١٨٩٧)، ومحمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥)، وعبدالهادى نجا الإبيارى (١٨٢٠-١٨٨٨)، والشيخ عبد الله الشرقاوى (١٨٣٧-١٨٧٢).

وكان كتاب (المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية) لحمزة فتح الله (١٨٤٩-١٩١٨) من بواكير هذه الأعمال، غير أن مؤلفه - كما يذكر السباعى بيومى فى مقدمة كتابه: «ننظر إلى الأدب كأنه فن لا يستند إلى علم، أو كأن دراسته - بعيدة عن تاريخه - كافية فى تكوين الأدب»[1].

وقدم حفنى ناصف (١٨٥٦ - ١٩١٦): (حياة اللغة العربية) سنة ١٩١٠، وأحمد الإسكندرى: (تاريخ آداب اللغة العربية فى العصر العباسى) سنة ١٩١١.

ومحمد على المنياوى: (الشذرات السنية فى تاريخ آداب اللغة العربية) سنة ١٩١١.

وجورجى زيدان (١٨٦١-١٩١٤): (تاريخ آداب اللغة العربية) سنة ١٩١١، ومصطفى صادق الرافعى (١٨٨٠-١٩٣٧): (تاريخ آداب اللغة العربية) سنة ١٩١١.

وطه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣): (تجديد ذكرى أبى العلاء) الذى حصل به على درجة الدكتوراه سنة ١٩١٤، وطبعه سنة ١٩١٥، ثم ثورته المنهجية فى كتابه (فى الشعر الجاهلى) سنة ١٩٢٦، ثم ما أدخله من حذف وإضافة تمثلت فى الصورة الجديدة للكتاب السابق، وذلك فى كتابه (فى الأدب الجاهلى) سنة ١٩٢٧، وما دار حول هذه الثورة المنهجية من حوار ساخن مما لا نخوض فى تفصيلاته هنا، وإن كان لا يفوتنا التنويه بأهميته وعظيم أثره.

وهكذا تتابعت جهود كل من:

---

(١) السباعى بيومى، تاريخ الأدب العربى جـ١، العصر الجاهلى، النهضة١٩٤٨ ص٦.

أحمد حسن الزيات (١٨٨٥-١٩٦٨) فى (تاريخ الأدب العربى) سنة ١٩٢٨، ومحمود مصطفى فى (الأدب العربى وتاريخه فى صدر الإسلام والدولة الأموية) سنة ١٩٣٣، وزكى مبارك (١٨٩٢-١٩٥٢) الذى كتب بين سنة ١٩٢٧ وسنة ١٩٣٠ رسالته لنيل درجة الدكتوراه فى (النثر الفنى فى القرن الرابع)، وصدرت سنة ١٩٣٤. وأحمد الشايب فى كتابيه: (تاريخ الشعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى) سنة ١٩٤٥، و (تاريخ الأدب العربى) سنة ١٩٤٨، ومحمد هاشم عطية فى (الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى)، وأنيس الخورى المقدسى (١٨٨٥-)، وأمين الخولى (١٨٩٥-١٩٦٦)، والعقاد (١٨٨٩-١٩٦٤)، ومحمد حسين هيكل (١٨٨٨-١٩٥٦)، وأحمد أمين (١٨٨٧-١٩٥٤)، ومحمد خلف الله أحمد، وعبد الوهاب حمودة.. الخ.

ونكاد نستغرق وقتًا طويلًا لو مضينا مع الحصر والاستقصاء لأعمال أخرى وما حمل اسم المفصل، أو المجمل، أو الوسيط، أو الموجز، أو المنتخب، كما نقضى وقتا أكثر طولًا لو رحنا مع مضمون هذه الدراسات نتعرف على مناهجها، وما بها من محاسن ومآخذ، غير أن علينا الآن أن نقنع بهذه العجالة توطئة للحديث عن ميلاد باحث، وبزوغ نجم علمى وسط تفكير أدبى ركز الحديث عنه أحمد الشايب فى مقدمة (تاريخ النقد الأدبى عند العرب من العصر الجاهلى إلى القرن الرابع الهجرى)[٢] لطه إبراهيم، إذ رأى التفكير الأدبى يتجه فى أحد اتجاهين:

- اتجاه غربى يعزلنا عن بيئتنا الأدبية، ويستنبط قوانين خارجة عنها.

- واتجاه يقف عند ما كتبه الأقدمون فيقع فى أحكام جزئية، سريعة، ويقنع بالسابقين فحسب، ويجعل الأدب العربى وحدة مستقلة، لهذا رأى أن تكون الدراسة فنية تعنى بالأصول والطرائق والمقاييس، وتاريخية تهتم بالماضى، وأطوار النشأة.

وقد ذهب محمد النويهى فى مقدمة كتابه (ثقافة الناقد الأدبى)[٣] إلى أن بعض كتب تاريخ الأدب هذه صرفت المتعلمين عن الأدب العربى، وقطعت عليهم الصلة بمصادره الأصيلة، إلى أن رأى أن مثوى هذه الكتب (النار)!!، بل وصفها بأنها كتب (شنعاء)!، لقيامها - كما يقرر - على أشتات من المعلومات، وعلى الأحكام الجزافية غير الصحيحة، وعلى الاستظهار، إلى آخر ما ساق النويهى من نقد لتلك الكتب المدرسية مستثنيًا (المجمل)، معللا ذلك بأن طه حسين أحد مؤلفيه.

---

(٢) لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ١٩٣٧.

(٣) الخانجى، دار الفكر ط٢، بيروت ١٩٦٩، ص١١، وما بعدها. وانظر نقده الشديد لكتاب (الفن ومذاهبه فى الشعر) ص٤١ وما بعدها.

وما يعرضه النويهى، هو استمرار لما سبق أن نوقش فى مطلع العقد الثانى من القرن العشرين، ففى سنة ١٩١١ شرع طه حسين ينقد كتاب جورجى زيدان على صفحات مجلة الهداية، مناقشًا التفرقة بين كتب الفهرسة - ولعله يقصد العلم الذى نضج بعد ذلك وهو علم البيليوجرافيا - من ناحية، وكتابة تاريخ الأدب من ناحية أخرى، معترضاً على اتباع تقسيم الأعصر السياسية، تلك التى تجعل الأدب متأثرًا بالحوادث ولا تجعله مؤثرًا فيها.

وفى سنة ١٩١٥ عاد فى مقدمة (تجديد ذكرى أبى العلاء) إلى الحديث عن تردد درس الأدب فى مصر بين تيارات أحدها المذهب القديم، والثانى مذهب الأوربيين، والثالث بين المذهبين، وصفه بأنه «مشوش ردىء كله شر» وكيف اهتمت الجامعة بالمذهبين الأولين.

وفى سنة ١٩٢٦ عاد فى مقدمة (فى الشعر الجاهلى) إلى مناقشة القضية ذاتها، متناولاً مفهوم مصطلح (الأدب) والصلة بينه وبين تاريخ الأدب، ومقاييس تاريخ الأدب من المقياس السياسى الذى ينكره، والمقياس العلمى الذى يعدل عنه كما عدل عن الآخر، والمقياس الأدبى الذى يختاره ويتخذه سبيلاً للبحث.

كما رأى محمد حسين هيكل أن جورجى زيدان، والرافعى، لم يوفقا فى الجزأين الأولين من كتابيهما؛ إذ رأى فى تاريخ الأدب ألا يقوم على سرد الوقائع، أو أخبار الرجال وآرائهم، كما لا يقوم على العناية بالأعراض دون الجواهر، أو الانسياق وراء العاطفة، أو عدم الاعتماد على الأدلة والبراهين، أو عدم تحرى الدقة، وكما عرض لذلك فى كتابه (فى أوقات الفراغ)(٤)، عرض فى كتابه (ثورة الأدب)(٥) آراءه حول الأدب القومى.

ولم ينفصل ذلك كله عن تيارات الفكر المعاصر المتراوحة بين الافتتان بالغرب، والاتجاه إليه، وبخاصة لدى العائدين من البعثات الخارجية، أو الالتزام بالمحافظة، أو التردد بين التيارين فى حدة غربية مسرفة، أو حدة مادية متطرفة، أو ميل فرعونى طارئ.

وبين هؤلاء وأولئك، وجدنا من يفتتنون بجمال الصياغة والأسلوب، كما وجدنا من يهتمون بالقيم والأفكار الكامنة فى المضمون، دون إهمال للشكل ودون إسراف فى تجميله، كما وجدنا طائفة من المتجاورين علميًا فى معارك أدبية متنوعة.

ولسنا بسبيل بسط القول فى الإبانة عن مضمون ما سبق من دراسات. ومدلول كل ما سبق ذكره من مصطلحات، فقد سُبقنا بتفصيل القول عنها، كما أننا نذكر ذلك كله لنتعرف على البيئة الفكرية، والأدبية التى استقبلت إسهام عالمنا الكبير شوقى ضيف الذى وجد من

---

(٤) القاهرة ١٩٤٨.

(٥) مطبعة مصر د. ت.

الضرورة الإسهام فى استكمال ما بدأه السابقون من بناء، فلم يقتصر دوره على ذلك فحسب، بل أضاف وابتكر، وجدّد ونظّر.

٣ - سبيلان أحدهما.. تنظيرى والآخر تطبيقى:

ولكى نقف على جهوده نرى من الضرورى الإشارة إلى أن إسهام شوقى ضيف اتخذ سبيلين، أحدهما تنظيرى، والآخر تطبيقى.

السبيل التنظيرى:

أما السبيل التنظيرى، فيمكن أن نلتمس طريقنا إليه فى مصدرين.

أحدهما: مقدمات كتبه جميعها، وفيها نراه حريصًا على ذكر تاريخ كتابتها باليوم والشهر والسنة.

وثانيهما: كتابه (فى النقد الأدبى) الذى وضعه فى أبريل ١٩٦٢.

وكتابه (البحث الأدبى): طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره) الذى وضعه فى فبراير ١٩٧٢.

لا شك أنه قد التفت إلى تنوع اهتمامات الدارسين بين الانشغال بما حول الأدب من حياة صاحبه وبيئته، ومجتمعه، وعصره، وظروفه السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، أو الجمع بين ذلك وبين الاهتمام بالعمل الأدبى ذاته من تحليل وتفسير وتقويم وتذوق.

لقد رأى جورجى زيدان - كما يذكر فى مقدمة الجزء الثانى من كتابه[٦]- ضرورة وجود شروط ثلاثة للتأليف هى:

اختيار الموضوع الذى تحتاجه الأمة، وسبكه فى قالب يسهل تناوله فى لهجة صادقة صريحة دون انحياز لطائفة أو حزب.

كما رأى افتقار الأبحاث الأدبية إلى إعمال الفكرة من ترتيب وسبك، فى عبارة سهلة غير ركيكة. كما مضى متسائلاً عن معنى تاريخ الأدب واتصاله بالمعنى العام لكلمة الأدب أو الخاص لها، وتفاوت الاهتمام بين الإحاطة بحياة الأدباء أو الإحاطة بالكتب. أما منهجه، فيجمله بقوله:

«فقد أردنا أن نجمع بين ذلك كله على ما بلغ إليه الإمكان»، متحدثًا عن نسق الكتاب؛ أى: تقسيمه، وجعله للناشئة».

ونقف من ذلك على حقيقة ذات أهمية بالغة، تفرق بين دارس وآخر، مرجعها إلى فهم الأدب

(٦) جورجى زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٢، الهلال ص ٣ ومابعدها.

بمعناه العام، كما رأينا لدى من أرّخ لآدابنا من المستشرقين، وكما صنع جورجى زيدان، أو فهم الأدب بمعناه الخاص، وهذا ما ارتآه شوقى ضيف فى دراساته الأدبية على نحو ما يحدثنا فى مقدمة كتابه (العصر الجاهلى)[7]، حيث رأى أن يدرس الأدب بمعناه الخاص ليقف على الجمال الفنى، غير مكتف بالنبذ المجملة، كما رأى ألا نبطل فكرة الشخصية الأدبية والمواهب الذاتية مع مراعاة الجنس والزمان والمكان، وتطور الأجناس الأدبية على نحوما درس فن المقامة وتولّدها من الأرجوزة، مع الوقوف عند أساليب الأدباء وتشكيلاتهم اللفظية والجمالية.

لقد أدرك عالمنا الكبير - كما يعبر فى المقدمة ذاتها - افتقار تاريخ أدبنا العربى إلى طائفة من الأجزاء المبسوطة تبحث فيها عصوره من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر، كما تُبحث شخصياته بحثًا مسهبًا بحيث ينكشف كل عصر انكشافًا تامًّا بجميع حدوده وبيئاته وآثاره.

كما أدرك صعوبة المهمة، يقول:

«وقد حاولت أن أنهض بهذا العبء ، وأنا أعلم ثقل المئونة فيه»، معللًا ذلك بأسباب هى: بقاء بعض المخطوطات دون نشر، أو دون نشر علمى، وأن بيئات أدبية يغمرها غير قليل من الظلام، وأن تحليل الأعمال الأدبية ليس عملًا سهلًا، ويقرر - بتواضع العلماء - أن ما يقدمه - فى كل عصر - لا يحمل الصورة الأخيرة للعصور المتعاقبة، ولا يمنع من إضافة اللاحقين، فتلك طبيعة الأبحاث يكمل بعضها بعضًا.

ويهمنا هنا ما يتصل بتحليل الأعمال الأدبية، إذ أدرك عالمنا بعض ما كان يعوز الدراسات السابقة، من فقدان ظاهرة الاهتمام بالنص وصاحبه، ولهذا كان حريصًا على التأكيد على هذا الجانب فى مقدمات كتبه، فهو فى المقدمة التى تحمل تاريخ سنة ١٩٧٣ لكتابه (العصر العباسى الثانى)[8] يصور «تمثل الشعراء خصائص العربية ودقائقها الجمالية والموسيقية»، ويهتم «بالأخيلة المبتدعة»، ويذكر:

«وبحثت بحثًا تحليليًّا تاريخيًّا أعلام الشعراء فى العصر»، ليقف على أشعار على بن الجهم، وأروع أشعاره ما نظمه فى الاستعطاف وفى تصوير صلابة نفسه»، ويقف عند البحترى ليرى «ما سُخر له من تلاوين الجمال الموسيقى الآسر وأنغامه وألحانه الرائعة»، كما يقف على أفكار ابن الرومى وتصويراته الجديدة، وابن المعتز، والصنوبرى.. الخ.

ويُصادفنا فى معظم مقدمات كتبه تنويهه بنزعة «النقد والتحليل» فى أعماله، رأينا ذلك فيما

---

(٧) كتب المقدمة فى ٢٠ ديسمبر ١٩٦٠، ورجعنا للطبعة السادسة فى سلسلة تاريخ الأدب العربى - ١، دار المعارف ١٩٧٤.

(٨) نرجع إلى ط ١٩٧٣ - دار المعارف.

أشرنا إليه من مقدمتين، كما نراه فى مقدمة كتابه (فصول فى الشعر ونقده)[٩]، كما نراه فى مضمون هذا الكتاب وفى غيره من كتبه.

وهناك جانب آخر يتصل بتقسيم العصور الأدبية وفقًا للعصور السياسية من الجاهلية، فالإسلام حيث صدر الإسلام فى عصر الخلفاء الراشدين، ثم العصر الأموى، ثم العصر العباسى: الأول فى مائة عام، والثانى بقية العصر، أو إلى سنة ٣٣٤هـ - ٩٤٥م حيث استولى بنو بويه على بغداد، حيث يبدأ العصر الثالث حتى استيلاء التتار على بغداد.

أما شوقى ضيف فيذكر فى مقدمة كتابه، (العصر الجاهلى) أنه يرتضى تقسيم العصرين الأولين، أما العصر الثالث، وهو العصر العباسى فيبقى منه على الأول حتى ٢٣٢هـ، والثانى حتى ٣٣٤هـ.ثم يبدأ بعصر رابع يمتد حتى العصر الحديث، ويسميه عصر الدول والإمارات، حيث يرى أن يؤرِّخ لكل إقليم على حدة، حتى إذا انتهينا من ذلك أرّخنا للعصر الحديث، والتعليل الذى يقدمه شوقى ضيف لذلك التقسيم، ويراه «أكثر دقة ومطابقة لتطوره»، هو أن «بغداد لم تعد منذ القرن الرابع الهجرى تحتل المكانة الأولى فى الحركات الأدبية، بل لقد نافستها فى الشرق والغرب مدن كثيرة تفوقت عليها فى النهوض بالشعر والنثر تفوقًا واضحًا».

وقد يجوز لنا أن نبنى على هذا التعليل تساؤلاً، حول اعتبار عالمنا الكبير العصر الحديث - الذى يبدأ بالحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١٣هـ-١٧٩٨م واحدًا كما هو عند جميع الدارسين، وهنا نتساءل ألا يحق لنا أن نجعل هذا العصر صدرًا، يتصل بمرحلة الإحياء والبعث، ثم نجعل له مراحل مما يتصل بمظاهر التغيير، مما يعود - فى مجمله - للحروب، وما تحدثه من تغيير، هذا تساؤل عارض نقدمه بين يدى البحث، ولعله يحظى بالتفاتة من الالتفاتات الواعية لعالمنا الجليل.

وكما كان لشوقى ضيف أن يستنّ طريقًا جديدًا واضحًا فى الدراسات الأدبية ميَّزه عن الألوان التجريبية التى سادت منذ أواخر القرن الماضى - مما ذكرنا -، كان له أن يبنى منهجه على ما يكونه من رأى ليس شخصيًا بقدر ما هو موضوعى، يُولَد نتيجة الدراسة العلمية، ولعل أصدق مايُساق فى هذا المجال توضيحًا لهذه المقولة التى نطرحها، كتابه عن أحمد شوقى أمير الشعراء الذى فاز بجائزة الدولة التقديرية للأدب سنة ١٩٥٥ بعنوان (شوقى شاعر العصر الحديث).

حقًا لقد ظهرت بحوث عديدة حول أحمد شوقى ليس من بينها - كما يعبر عالمنا- «بحث منظم»، يقول فى المقدمة التى كتبها فى أول يونيو ١٩٥٣م:

---

(٩) نرجع إلى ط ٢، ١٩٧٧ دار المعارف.

«فقد اكفهرت الأجواء الأدبية إزاءه، بالثناء المسرف والطعن المجحف، وأصبحنا لا نعرف أين الوجه الصحيح، ولا أين المقدمات السليمة، ولم نعد ندرى أى الأحكام فيه صادق، وأيها كاذب، وأيها مصيب.

وبذلك عميت علينا حقيقة شوقى، بل حقائقه الفنية جميعًا، وكان هذا أكبر باعث لى على النهوض بهذه الدراسة التى لم أقصد بها إلى تهجينه ولا إلى تحسينه، وإنما قصدت إلى بحثه ووزنه بمعايير سهلة، هى معايير النقد المنصف الذى لا يميل مع الهوى، وإنما يسجل الظواهر الأدبية متتبعًا مستقصيًا فليس همه أن يزرى وينتقص، ولا أن يزخرف ويزين، وإنما همه أن يصور الحق ويكشف الصواب».

وهكذا نجد وجهًا من وجوه الإضافة العلمية المنهجية للدراسة الأدبية العربية المعاصرة، يقوم على الحكم الموضوعى، وتأمّل الظواهر والاحتكام إليها فيما يصور من أحكام، كما نرى إبطال نظرة مجاراة الغير فى آرائهم دون تمحيص، وإبطال مبدأ البحث الانفعالى العاطفى الذى يميل مع الهوى، وإبطال مبدأ النبذ العجلى المبتورة، مما كنا نراه فى الدراسات الأدبية السابقة لعصر شوقى ضيف.

بل إننا نراه فى هذا الكتاب يقدم لونًا جديدًا على الدراسات الأدبية طالما أفاد منه النفسيون فى دراستهم للأدب، وهو دراسة المسودات الأدبية، وقد طبقه على شىء من شعر شوقى الغنائى والمسرحى.

لقد ختم عالمنا المقدمة بقوله: «فنحن لم نضع هذا البحث تشيعًا لأنصاره، وكذلك لم نضعه تعصبًا لخصومه، وإنما وضعناه ابتغاء تقويم شعره من جميع أطرافه تقويمًا صحيحًا دقيقًا».

ثم لا يلبث أن يعود للحديث عن شوقى ومكانته فى الشعر الحديث فى كتابه (فصول فى الشعر ونقده) ص ٢٣١ - ٣٤٨.

هذا عن المصدر الأول للجانب التنظيرى عند عالمنا.

٤ - أما المصدر الثانى للجانب التنظيرى عند عالمنا فنجده فى كتابه (فى النقد الأدبى)[١٠]، حيث يذكر فى المقدمة المكتوبة فى أبريل ١٩٦٢ أنه يقف عند تفسير الجمال الفنى، وتعليله والصلات المنعقدة بين فنون الشعر والتصوير والموسيقى، والشعر وأوزانه وصياغته ونصوصه، وتأويلاته وتجاربه وما ينبغى أن يتوفر للقصيدة من وحدة عضوية تامة.

ويعلن أن ما كتبه إنما هو آراء تمثلها، ابتغى فيها الوضوح لإيمانه «أن الكتب لاتحتاج إلى شىء حاجتها إلى الوضوح».

---

(١٠) نرجع إلى الطبعة السادسة، دار المعارف ١٩٨١.

ولهذا نجد فى هذا الكتاب الاهتمام بالتنظير؛ أى رصد الظاهرة النقدية منذ بواكيرها العالمية حتى تطورها فى العصر الحديث، وصولاً إلى ما سماه شوقى ضيف (التاريخ الطبيعى للأدب)، ووصولاً مع الدراسات النفسية والاجتماعية، لكنه وهو معنى بمصطلحات الجمال، والتجربة الشعرية، والوحدة العضوية، والأدب الاجتماعى، والنقد القصصى والمسرحى، يكون معنيًا أيضًا بالجانب التطبيقى مع عنايته بالتنظير حتى لا تتجافى مواطن الجمال فى النص عن أسس نقده ومناهج بحثه.

وفى مقدمة (البحث الأدبى)[11] المكتوبة فى فبراير ١٩٧٢، لا يفوته أن ينوه بأنه «لابد أن تكون لدى الباحث الناشىء قدرة على التذوق الأدبى المعلل، والتحليل الدقيق لشخصيات الأدباء، وفهم خصائصهم المميزة، مع دقة العرض واكتمال التمثل، ومع الاحتياط فى استخدام صيغ التعميم».

ولأنه قد شعر بحاجة طلاب الدراسات العليا لمثل هذا البحث، أخذ يعرض جوانب المنهج النظرية جامعًا بينها وبين التطبيق فى كثير من الأحيان ترسيخًا للفكرة وشرحًا لها، فينتقل من الحديث عن طبيعة البحث الأدبى، إلى تنوع المناهج بين العلوم الطبيعية، والاجتماعية، والنفسية، والجمالية، والاتجاه التكاملى الذى يميل إليه ويؤيده (١٤٤)، كما يتناول الأصول بين التوثيق والتحليل، والمصادر وتنوعها ونقدها.

٥ - شوقى ضيف ونظريته فى وحدة التراث:

إن فى تأمل مكتبة شوقى ضيف بمجالاتها المتعددة ما يقفنا على حقيقة مهمة هى صدوره عن نظرية آمن بها من قبل وطبقها فى بحثيْه: الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، والفن ومذاهبه فى النثر العربى، ومازال يعود إليها بين الحين والحين، ففى أكتوبر ١٩٨٠ نشر بمجلة فصول بحثا عنوانه (وحدة التراث) -ص٩-١٨، وواصل الحديث عنها فى يوليو ١٩٨١ بالمجلة ذاتها، فى بحث عنوانه (القديم الجديد فى الشعر) - ص١١-١٧، عودة إلى ما كتبه فى كتابه (فصول فى الشعر ونقده) حول (تقويم تراثنا الشعرى) ص٩-٢٧ سنة ١٩٧١، امتدادًا لما بدأه فى سلسلة تاريخ الأدب العربى [12].

إن ذلك ينبع - فى تصورنا - من نظريته فى (وحدة التراث) القائمة على الأسس التالية كما نوجزها من مقاله:

---

(١١) ترجع إلى ط ١٩٧٢.

(١٢) عن صلته بالأغانى للأصفهانى: الدكتور سيد النساج، رحلة التراث دار المعارف ١٩٨٤ ٢٥٢-٢٥٤.

الأساس الأول: وحدة التراث الدينى وعلى رأسه القرآن الكريم، وما انبثق عنه من تفسير وحديث ومذاهب فقهية.

الأساس الثانى: وحدة التراث النحوى واللغوى والبلاغى.

الأساس الثالث: وحدة التراث المتصل بعلوم الأوائل كالفلسفة والطب والطبيعة والكيمياء.. الخ.

الأساس الرابع: الوحدة الظاهرة فى نظام الأدب وقواعده: شعرًا ونثرًا.

الأساس الخامس: كتب تراجم المفسرين والقراء والمحدثين أو الحفّاظ للحديث النبوى والنحاة، وكتب التاريخ العام.

ولهذا يرى الشعر متجاوزًا المكان والزمان، لأن تعامله مع النفس البشرية يجعله ثابتًا لا يتغير فى جوهره، فيكون قديمًا فى زمن ظهوره، جديدًا فى زمن تأثيره، وهكذا يكون شعر المديح قديمًا وجديدًا،لأنه صادر عن وحدة تتمثل فى: الطبيعة البشرية، والإيقاع، والخيال، والصياغة، وهذه الوحدة التى تُعَدّ أساس التفكير المنهجى عند شوقى ضيف - فى نظرنا - تفسر ظواهر عديدة فى عطائه السخى، فهى تفسر اهتمامه بتاريخ الأدب العربى، حيث تعاقبت إصداراته عن العصر الجاهلى والإسلامى والأموى والعباسى، ودراساته عن الفن ومذاهبه فى كل من: الشعر والنثر، ودرّاساته فى الأدب المعاصر، والشعر المعاصر ومعظم شعرائه المعاصرين، وبخاصة: البارودى وشوقى فى كتابيه، وفى ثنايا كتب أخرى، وفى نظير معاصر لهما له دوره فى الشعر الجديد، وهو صلاح عبد الصبور الذى يكتب عنه بحثه (صلاح عبد الصبور رائد الشعر الحر الجديد) بمجلة فصول (أكتوبر ١٩٨١)، ويعلن أنه «كان يديم التفكير فى هذا الشعر الجديد»، و «وكان يتعاطف معه»، حتى يقرر ريادة صلاح عبد الصبور لهذا الشعر، كما يكتب عن (نواقص الإيقاع فى الشعر الحر) ص ٣٠١ بكتابه (فصول فى الشعر ونقده)، كما يكتب عن الغناء والشعر وطوابعه الشعبية، وفنون الأدب: الرثاء والمقامة، والترجمة الشخصية، والرحلات.

كما يكتب فى النقد والمناهج، ويؤرخ للبلاغة والمدارس النحوية، بل يقدم كتابه (تجديد النحو)، ويسهم فى التحقيق، والدراسات القرآنية، ويمزج بين الدرس اللغوى، والأدبى، والنقدى، والمنهجى، فى مقالات عن الحوار المسرحى بمجلة المجمع اللغوى (مايو ١٩٧٨ ومايو ١٩٨٠)، فيتحدث عن الفصحى والعامية وعن اللغة الثالثة.

إن هذا يعود - فى مجمله - إلى نظرة أصحاب المنهج التاريخى فى تأثير الحاضر فى فهم الماضى باستخدام (القياس التاريخى).

وفى ذلك كله – مما أوجزناه إيجازًا تحاشيًا للإطالة – نراه يضرب بسهم وافر، ويحيط إحاطة شاملة واعية، وما ذلك – فى نظرنا – إلا لإيمانه بوحدة التراث، تراث أمتنا، يراه حين يدنو من الأدب، أو النقد، أو البلاغة، أو النحو، أو التحقيق، أو الدراسات القرآنية، حتى ليمكن لنا أن نزعم – دونما مبالغة – أنه لم يتيسر لباحث محدث أن يحيط بدرس أدب أمته من أعماق ماضيها البعيد، إلى أوج حضارتها المعاصرة بدرجة واحدة من الإحاطة والشمول، والتمثل والاستيعاب، مثلما تيسر لباحثنا الكبير الذى استخلص لنفسه منهجًا، واصطفى سبيلاً بين تيارات صاخبة بين التراثية والغربية والفرعونية، بين سكينة اليقين وثباته، وصخب الشك واضطرابه، فى منهج، أبسط ما يقال فيه: إنه منهج تكاملى يجمع بين الرؤية الداخلية والرؤية الخارجية كما سنرى.

٦ – المنهج التكاملى:

لقد تمثل شوقى ضيف جهود المنهجيين السابقين فى العصور القديمة والحديثة، فى تراثنا العربى والتراث العالمى، لم يغب عن ذهنه جهود منهجية أفادت من قوانين العلوم الطبيعية، فاتجهت إلى أن الأديب وأدبه ثمرة قوانين قديمة وحاضرة ومستقبلة، وتجعل من الروابط ما يضم الأديب إلى فصيلة أدبية، ينتمى إليها مهما صاحب ذلك من غياب الخصيصة الفردية لكل أديب، وبذلك تتكون عناصر:

الجنس أو الفطرة الموروثة، والبيئة أو الوسط الجغرافى، والعصر، أو الزمان من ظروف سياسية وثقافية وفنية ودينية.

وفى تأمل تراث شوقى ضيف النظرى، والتطبيقى، ما يجعلنا فى مواجهة صريحة مع هذه النظرية التى ظهرت فى كتابات كل من: «سانت بيف، وتين، وبرونتيير».

أما الجانب النظرى عند عالمنا الكبير فيتمثل فى مناقشته هذه النظرية، وإشارته إلى تنبه العرب لهذه الثلاثية دون أن يعطوها حتمية أو جبرية، ولا يرى بأسًا من استخدامها فى تاريخ الأدب العربى، ودراسة أدبائه، دون خضوع للجبرية الحتمية، وبخاصة قانون الجنس لأنه لا يوجد جنس خالص.

ويناقش تطور الأنواع الأدبيعند «برونتيير» موافقًا أساسها، لكنه يرى أن الأطوار الأدبية لا يقضى بعضها على بعض، لذا لا يرى فى الأدب قديمًا وجديدًا، وسنرى فى الجانب التطبيقى مصداق ذلك عند عالمنا.

ومن جهود المنهجيين ما يتجه للجانب الاجتماعى، فى صلته الوثقى بالأدب، ومنهم من ينحو بالأدب منحى نفسيًا يتصل بالإبداع، وتفسير الأعمال الأدبية تفسيرًا نفسيًا، يتصل بالرغبات

والدوافع والنماذج العليا، والعقد، واللاشعور الفردى، والجمعى.. الخ، ومن جهود المنهجيين ما يتجه للفلسفة الجمالية. وهكذا تعددت مناهج البحث الأدبى مفيدة من إنجازات العلوم الحديثة المعاصرة، مما عقّد مجالاتها ونوعها كما هو معلوم.

أما شوقى ضيف فإنه يرتضى المنهج التكاملى، كما تحدث فى كتابه (البحث الأدبى) ص ١٣٩، فيفيد من العلوم الطبيعية فى دراسة الأديب فى أسرته وتربيته والمؤثرات الذاتية، وفى دراسة تطور الأدب من عصر إلى عصر، ومن المنهج الاجتماعى يقف على أثر المجتمع فى الأديب وفى الأدب، ويبّين طبقة الأديب، ويفيد من الدراسات النفسية على موطن الموروثات فى الأدب، والعُقَد، كما يفيد من الدراسات الجمالية، ويخلص من ذلك كله إلى ضرورة الاستضاءة بكل هذه المناهج، وعدم الاقتصار على منهج واحد منها، ليتحول عقل الباحث إلى مرآة تعكس أضواء كل تلك المناهج فتعكس فكرة الأصالة والفردية والفصيلة الأدبية، والبيئة والعصر والظروف، والتطور التاريخى، والحاجات الاقتصادية للمجتمع، ورواسب اللاشعور الفردى والجمعى، وعناصر الجمال، فيما يشبه المنارات الضخمة تهدى سواء السبيل.

هذه هى خلاصة موجزة للآراء النظرية لشوقى ضيف، فيما عرضه فى كتابه (البحث الأدبى)، وهى آراء تكشف عن منهج تكاملى، نجده فيما بين أيدينا من بحوثه المتعددة فيما نعنى ببيانه من بحوثه التطبيقية فيما يلى.

لقد قدمنا حديثا عن نظريته فى وحدة التراث فى بحوث تطبيقية لديه أشرنا إلى بعضها، ونضيف إليها بحثه الفريد (الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور)(١٣) الذى كتبه سنة ١٩٧٧، وبناه على نظريته القائلة بأن «الشعر يفصل من قلوب شعوبه وأفئدتها، ويصور حياتها وآمالها وآلامها» على مدى العصور.. لقد تتبع الظاهرة فى العصر الجاهلى، ثم الإسلامى، ثم العباسى الأول، فالثانى، ثم عصر الدول والإمارات، ثم فى العصر الحديث.

وحين ناقش - من قبل - آراء علماء الأدب فى نظرية التطور عبرً - بطريق غير مباشر - عن نظريته فى (وحدة التراث)، قائلاً:

«الأطوار الأدبية لا يقضى بعضها على بعض، ولا يمحو بعضها بعضًا، وآية ذلك أننا نطرب للشعر الذى كتبه الجاهليون على الرغم من أنه يمثل طورًا مغرقًا فى القدم، فالطور الجديد فى الشعر لا يحكم على طور قديم بالفناء، وهو معنى ما يقال من خلود الأدب، وأنه لذلك لا يوجد قديم ولا جديد»(١٤).

إن هذا الذى قاله سنة ١٩٧٢، هو بعينه ما ذهب إليه فى بحثيه المشار إليهما من قبل: وحدة

---

(١٣) ترجع إلى الطبعة الأولى. (١٤) البحث الأدبى ٩٥.

التراث سنة ١٩٨٠، والقديم الجديد فى الشعر سنة ١٩٨١، إن نظريته التكاملية جعلته ينظر لسنة التطور فى الفنون الأدبية نظرة لا تنفصل عن الجمال الفنى، نظرة تحقق نوعًا من التوازن بين المناهج الفنية، وقد أسلمته نظريته عن (وحدة التراث) إلى نظرية أخرى، هى ما يمكن أن نسميه نظرية (وحدة **الظواهر الأدبية**).

فكما وقف عند ظاهرة البارودى رائد حركة البعث فى الشعر العربى المعاصر وأفرد له كتابًا، ورأى امتداد الظاهرة وتطورها فى خطوات تجديدية عند أحمد شوقى، فأفرد له كتابًا أيضًا كما قدمنا، وإلى جانب الكتابين لم نعدم إشارات وإضافات له عن الشاعرين فى كتبه الأخرى مثل:

الأدب العربى المعاصر فى مصر، وفصول فى الشعر ونقده كما قدمنا، ودراسات فى الشعر العربى المعاصر.. الخ.

نقول إنه كما صنع ذلك مع القمم الرائدة فيما سبق، يمضى فيكتب عن صلاح عبدالصبور ملقِّبًا إياه: رائد الشعر الحر الجديد، كما لقَّب البارودى برائد الشعر الحديث، وكما لقَّب شوقى بشاعر العصر الحديث، هكذا تطرد الظواهر الأدبية أمام ناظريه فى إطار منهجه التكاملى، الذى لا ينظر للتطور نظرته إلى عملية «إحلال» أو «فناء». بل ينظر للظواهر الأدبية على أساس امتدادها الطولى، فينظر إلى فن الغناء فى مكان ما وعصرما، ويقدم لنا كتابه (الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية)، ويعمد إلى الفنون الأدبية العربية، فيرصد امتـدادها ووحـدة ظواهرها، ويفرد لكل منها دراسة خاصة، فنرى دراساته حول فن الرثاء، وفن المقامة، وفن النقد، وفن الترجمة الشخصية، وفن الرحلات.

إن هذه النظرة التكاملية شديدة الاتصال بتكاملية منهج شوقى ضيف – كما سنـرى – وأقصد بذلك نظرته إلى العلوم الأخرى المتصلة بالأدب، لقد بينا فى مطلع حديثنا موقف باحثنا ممن نظروا للأدب بمعناه العام، وكيف ارتأى أن ينظر إليه من خلال مفهومه الخاص، ونضيف هنا أنه – وقد نوّع من خصوبة عطائه كما هو معروف – ينظر للبلاغة حين يقدم كتابه (البلاغة تطور وتاريخ) فى فبراير ١٩٦٥ من خلال الترابط الوثيق بينها وبين الأدب، وهو ربط يتجاوز مجرد النظرة السببيالتى كانت تحكم نظرة أحمد ضيف من قبل – كما قدمنا –، ونترك لشوقى ضيف تقديم وجهة نظره، فهو أقدر على بسطها على كل حال، يقول:

«ولم تكن غايتى أن أصور هذا التاريخ لبلاغتنا فحسب، بل أيضًا أن أصور التفرغط الوثيق بينها وبين أدبنا فى تطورهما، حتى انتهيا إلى الجمود والتعقيد والجفاف والتكرار الممل، وأن رسم فى تضاعيف هذا التطور الوشائج الواصلة بين كل بلاغى...»، ثم يـذهب إلى أنه «ينبغى فى تشكيل بلاغتنا الحديثة أن نعنى ببيان الأساليب الأدبية المتفاوته وفنون الأدب المختلفة حتى تلائم بين بلاغتنا وأدبنا الحديث وأساليبه وفنونه».

وهكذا نقف عند عالمنا على جانب من نظرته التكاملية التى فتحت الباب، أمام دراسات بلاغية عربية حديثة، اهتمت بصلة البلاغة بالأسلوبية، وقد وجدنا نماذج لذلك لدى جيل من الباحثين المعنيين بهذا الأمر الآن ممن تأثروا بمنهج عالمنا الكبير.

ويتصل بهذا الجانب التكاملي - أيضًا - أنه حين حقق كتاب (الرد على النحاة) لابن مضاء القرطبى الذى صدر عن لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م وجد فى ذلك باعثًا على التفكير فى تجديد النحو، ومازال يواصل جهوده حتى أظهرها فى كتابه (تجديد النحو) سنة ١٩٨٢ فى شكل جديد أعتذرُ عن عدم الاستطراد فى الحديث عنه، وإن كان لا يفوتنى التنويه بالتفاتته الأدبية التى تؤكد تكامل العلوم لديه - كما قدمنا - فقد ذكر من بين أنواع الجمل جملة أسماها (الجملة الحوارية)، تلك التى يجاب بها فى حوار القصص ص ٢٥٧، وهى إشارة أحسبها فريده لم تتكرر لدى غيره، بل لم يسبقه إليها أحد.

وينقلنا ذلك إلى ظاهرة أخرى هى أدق وجوه منهجه التكاملي، وهى عماد بحوثه كلها فيما نرى، هذه الظاهرة هى جمعه بين الرؤية الداخلية والرؤية الخارجية:

إن المتتبع للبناء الفنى لدراسات شوقى ضيف يجدها نابعة من هذا المنطلق إيمانه التكاملى بضرورة قيام الدراسة على جناحين: أحدهما خارجى يستلهم المجتمع، والنفس، والطبقات، والعقائد، والعادات، وعوامل الاقتصاد، والسياسة. والآخر داخلى يستكنه النص ويستشرف آفاقه ويمتص رحيقه ويستوعب شذاه، ولكى نوضح ما نقصد بهذه الظاهرة نستعرض البناء الفنى لسلسلة دراساته فى (تاريخ الأدب العربى)، ودراستيه عن شاعرى العربية الحديثة: البارودى، وأحمد شوقى لنرى وجهى الرؤية المنهجية عنده من الخارج ومن الداخل.

إنك واجد كل كتبه بلا استثناء يقوم على الأساس التالى:

الفصول الأولى من الكتاب - قد تكون ثلاثة وقد تكون أربعة - ذات رؤية خارجية تستقرىء التاريخ، وتتعرف على المجتمع والبيئة، والحياة السياسية والدينية والاقتصادية، وكل العوامل الخارجية، وما أسماه التاريخ الطبيعى للأدب، فى فصول يختار لها هذه العنوانات[١٥]: الجزيرة العربية وتاريخها القديم. العصر الجاهلى - الحياة الجاهلية - الإسلام - الشعراء المخضرمون ومدى تأثرهم بالإسلام - مؤثرات عامة فى الشعر والشعراء - بيئات الشعر الأموى - تطوره مع الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية - الحياة السياسية - الحياة الاجتماعية - الحياة العقلية.(هذه الثلاثة التزمها فى العصر العباسى الأول

---

(١٥) نرجع فى ذلك إلى كتبه: العصر الجاهلى - العصر الإسلامى - التطور والتجديد فى الشعر الأموى - العصر العباسى الأول، فالثانى.

والثانى)، وفى حديثه عن البارودى أو شوقى يهتم بالحديث عن (الحياة) فى فصل خاص.

إن التزام شوقى ضيف بهذا الجانب من الرؤية الذى نسميه رؤية خارجية، يقوم على أساس من منهجه التكاملى، ولايقتصر على أهمية التاريخ كما يذكرها ابن الأثير[16] فحسب؛ فى قوله:

«ولقد رأيت جماعة ممن يدّعى المعرفة والدراسة، ويظن بنفسه التبحر فى العلم والرواية، يحتقر التواريخ ويزدريها، و يعرض عنها ويلغيها، ظنا منه أن غاية فائدتها إنما هـو القصص والأخبار، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار، وهذه حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره، أصبح مخشلبًا[17] جوهره، ومن رزقه الله طبعًا سليمًا، وهداه صراطًا مستقيمًا، علم أن فوائدها كثيرة، ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة.

إن اختيار شوقى ضيف لهذا التكامل بين الرؤية الخارجية والرؤية الـداخلية يلتقى مـع ما يقرره مؤلف كتاب، (كيف نفهم التاريخ - مدخل إلى تطبيق المنهـج التاريخى)[18] وهـو الأمريكى لويس جوتشلك Louis Gottschalk إزاء حديثه عن المؤرخ واتجاه أهدافه إلى أن يكون حارسًا على التراث الثقافى أولاً، ثم رؤية للتطور البشرى ثانيًا، وهكذا نرى أخذ شوقى ضيف بالمناهج غير الجمالية طريقًا يصل به إلى قلب التراث وإطاره العام، ويمكنه من رواية تطوره وتعاقب أجياله، حتى يمكن القول إن تراثه الأدبى يروى تاريخ آدابنا العربية ويقدمها للأجيال ذخيرة باقية خالدة، وهنا تكمن قيمة الرؤية الخارجية كما نقف عليها فى دراساته.

وإلى جانب السمات السابقة لمنهج شوقى ضيف فى الدراسات الأدبية مما يندرج فى إطار الرؤية الخارجية، نجد سمة أخرى هى الرؤية الداخليـة، وهى أساس من أسس دراساته وبحوثه، فإذا مارجعنا إليها بنفس المنهج السابق وجدناه بعد الرؤية الخارجية فى الكتب السالف ذكرها يعمد إلى طائفة من الشعراء فى كل كتاب ليدرسها دراسة جمالية فنية واعية متأنية كما رأينا فى دراسة: امرىء القيس، والنابغة، وزهير، والأعشى، وابن أبى ربيعة، والكميت، والوليد، ورؤبة، وطوائف من الشعراء والكتاب. أو يعمد إلى أغراض شعرية فيوفيها حقها من الحديث الفنى، كما رأينا فى شعراء المديح والهجاء - وشعراء السياسة - والنقائض.. الخ.

وقل مثل ذلك فى النثر.

أما دراسة الشاعر (البارودى أو شوقى) فنجده بعد الرؤية الخارجية يتحدث عن مكونات الصناعة، والمؤثرات الفنية، وشعر الشاعر وتجديده.

---

(١٦) الكامل فى التاريخ لابن الأثير - مج ١ دار صادر، ودار بيروت - بيروت ١٩٦٥، ص ٦

(١٧) المخشلب: خرز يتخذ منه حلى واحدته مخشلبة، المخصص لابن سيده.

(١٨) دار الكاتب العربى بيروت ١٩٦٦ ص ١٠٥ (ترجمة الدكتورة عايدة سليمان عارف).

أما الكتب ذات الموضوعات المتعددة فتمتزج النظرتات الداخلية والخارجية فيها فى الموضوع الواحد، وتغلب الرؤية الداخلية فى معظمها كما نرى فى كتابه (دراسات فى الشعر العربى المعاصر) حيث: اللذة الصاخبة عند أبى شبكة، وضجيج الألفاظ الخلابة عند على محمود طه، وفى هذا الموضوع تبدو ومضات أسلوبية فى منهجه الفنى تنحو منحى الأسلوبيين، والمادة التصويرية فى شعر أبى ريشة. ونرى مثل ذلك فى كتابه (فصول فى الشعر ونقده) حيث نرى دراسته لنواقص الإيقاع فى الشعر الحر.

وفى هذه الموضوعات نرى غلبة الرؤية الداخلية، وازدياد ميله الجمالى لدراسة النص.

وهو فى ذلك كله خاضع لطبيعة الموضوع وما يستلزمه من منهج، وما يقتضيه من نظرة فنية تتلاءم مع طبيعته، وأبعاده مما يجعله جامعًا بين الرؤية الداخلية والخارجية فى منهجه التكاملى، وإن كان ذلك لا يمنع من ظهور أحد الجانبين ظهورًا يطغى على الجانب الآخر، تبعا لاختلاف طبيعة الدراسة مما بين أيدينا من تراث أضفى على الدراسة الأدبية طابعًا منهجيًا علميًا رزينا تخلص مما عانت منه الدراسات السابقة من مآخذ.

وإذا كنا قد انتهينا إلى أن منهج عالمنا الكبير منهج تكاملى، فإن علينا أن نضيف أن هذه التكاملية تتسم بسمتين، السمة الأولى أنها تكاملية عربية، والسمة الثانية قيامها على الوضوح.

ونقصد بكونها عربية أن منهج التكامل فيها لم يقم على التوفيق، أو التلفيق بين نظريات منقولة كما انتهى إليه أصحاب كل منهج، وأن منهج التكامل فيها لم يقم على إغراق فى تفصيلات أنصار هذا المنهج، أو ذاك من اهتمام بالتاريخ الطبيعى، أو علم الاجتماع الأدبى، أو التحليل النفسى للأدب ودراسة الإبداع إلى آخر ما هنالك من اتجاهات،أى أنه لم يعمد إلى نظريات جاهزة بل عُنى بوضع يده على طبيعة العلاقة بين القوانين الداخلية، والأخرى الخارجية للأدب العربى فى عصوره المختلفة، مفيدًا من كل ما يخدم هذا الهدف من نظريات دون خضوع لواحدة منها، ودون خضوع لها مجتمعه.

ونصل بذلك إلى السمة الثانية، وهى الوضوح، وفى ذلك ارتباط بالمعنى الأول لكلمة المنهج قبل أن تصير مصطلحًا علميًا تتعدد مجالاته وتتنوع، فالطريق النَّهْجُ هو البيِّن الواضح وأنْهَجَ الطريق استبان وصار نَهْجًا بينًا، والمِنْهاج الطريق الواضح، واستنهج الطريق صار نَهْجًا، وفلان يستنهج سبيلَ فلان أى يسلك مسلكه، والنَّهج: الطريق المستقيم، وهكذا كان الوضوح فى هذا المنهج التكاملى لأستاذنا شوقى ضيف.

د. يوسف حسن نوفل
أستاذ الأدب الحديث
كلية البنات - جامعة عين شمس